4. الفصل الثالث

عندما تلتقي الشخصيات الغير عادية بوطن غير عادي

هل البيئة الفيضية هي مفتاح الشخصية :

ذكرنا ما قاله الأستاذ جمال بدوي عن أن هؤلاء القادة قد وضعوا أيديهم علي مفتاح شخصيتها فباحت لهم بسرها ، فهل ممكن أن يكون مفتاح شخصيتها هو ما قاله الدكتور جمال حمدان عن البيئة الفيضية وأثرها في طبيعة الحكم في مصر حيث كتب ما ملخصه :

(- - - - الحقيقة الكبري في كيان مصر هي أنها بيئة فيضية ، لا تعتمد علي المطر في حياتها ، وإنما علي ماء النهر ، وقوامها هو زراعة الري - - ومن هنا بالدقة يبدأ كل الفرق في حياة المجتمع النهري وطبيعته ، ففي البلاد التي تعيش علي الأمطار مباشرةً يختزل المجهود البشري إلي حده الأدني ، فبعد قليل من إعداد الأرض والبذر ، يتوقف العمل أو يكاد حتي الحصاد ، وبين هذا وذاك فليس هناك من يحفر الترع والمصارف أو يقيم الجسور والسدود وأهم من هذا كله أن ليس هناك من يمكنه أن يحبس عنك المطر أو أن يتحكم في توزيعه ، من هنا فقد تكون الطبيعة سيدة الفلاح ولكن الفلاح بعد ذلك سيد نفسه ، أما في بيئة الري فالأمر مختلف كل الاختلاف - - لابد من مجهود بشري ضخم أي لابد من شبكة غطائية كثيفة من الترع من كل مقياس ابتداء من قنوات الحمل وقنوات التغذية إلي مساقي الحقول حتي تزرع ، ثم ما جدوي تلك الشبكة إذا لم تسيطر علي أعناقها ورءوسها بالنواظم والقناطر والسدود ؟ أعني أي جدوي فيها بغير ضبط النهر ؟

وأكثر من هذا ما جدوي الجميع بغير ضبط الناس ؟ - - إن زراعة الري إذا تركت بلا ضابط يمكن أن تضيع مصالح الناس المائية في مواجهة بعضها البعض مواجهة متعارضة دموية ، ذلك أن كل من يقيم علي أعلي الماء يستطيع أن يسئ استعماله إما بالإسراف أو بحبسه تماماً عمن يقع أسفله أي أن كل حوض علوي يستطيع أن يتحكم في حياة أو موت كل حوض سفلي وكل من يقع علي أفواه الترع يستطيع أن يهدد حقوق المياه لمن يقع علي نهايات الترع ، كذلك يمكن للمحاباة والتحيز أن تسخو بالماء لمن تريد وتقبضه عمن تريد ، المحصلة إذن واضحة : بغير ضبط النهر يتحول النيل النبيل إلي شلال حطم جارف ، وبغير ضبط الناس يتحول توزيع الماء إلي عملية دموية ويسيطر علي الحقول قانون الغاب والأدغال ، في ظل هذا الإطار الطبيعي يصبح التنظيم الاجتماعي شرطاً أساسياً للحياة ويتحتم علي الجميع أن يتنازل طواعية عن كثير من حريته ليخضع لسلطة عامة أعلي توزع العدل والماء بين الجميع ، سلطة عامة أقوي بكثير مما يمكن أن تتطلبه بيئة لا تعتمد علي نهر فيضي في حياتها ، وبذلك لا تكون الطبيعة وحدها سيدة الفلاح ، وإنما بين الاثنين يضيف الري سيداً آخر هو الحاكم ، فإذا ما التفتنا إلي مصر القديمة بصورتها الفرعونية فستجابهنا هذه الملامح ، ملامح المجتمع الهيدرولوجي إلي حد نادر المثال ، فقد عد فرعون ضلعاً أساسياً في مثلث الإنتاج إلي جانب الضلعين الطبيعيين الماء والشمس هذا عن الحكومة أما عن المجتمع فهو أساساً مجتمع تعاوني منظم - -

وهنا نجد في القرية المصرية في صميم تركيبها وسيكولوجيتها وزراعتها قدراً كبيراً متوطناً ومتأصلاً من التعاونية والمشاركة التلقائية ، فهي خلية بشرية متلاصقة متلاحمة)36

ومما سبق يتضح دور الحاكم في مصر ، فليس من المستغرب أن أول حكومة في التاريخ كانت في مصر كما يوضح د جمال حمدان في موضع آخر من كتابه القاهرة حيث كتب ما يلي : (--- فالبيئة كما رأينا فيضية ، والمجتمع مجتمع هيدرولوجي ، ولهذا أصبح الري مرادفاً للتنظيم ، والتنظيم المركزي ، الذي يخضع فيه الجميع طواعية لسلطة عامة مطلقة . وإن كان هذا من أقوي عوامل ظهور الوحدة السياسية المبكرة في مصر ،

كما أنه علم الشعب "أن" النظام أساس الحضارة ، إلا أن هذا أيضاً بدأ دور الحكومة الطاغي وأرسي نواة الموظفين الثقيلة ، وأصبحت البيروقراطية المركزية عنصراً أصيلاً في مركب الحضارة المصرية ، بل ثقلا عنيدا في موكبها . أصبحت مصر مجتمعاً حكومياً كما نقول ، فالحكومة وحدها هي التي تملك زمام المبادرة وإمكانيات العمل ، العمل الكبير علي أية حال ، وقد كان لهذا قيمته في بعض المراحل – – ، ولو أنه ربما خلق في جميعها شيئاً من روح التواكل والتكاسل والسلبية وخنق ملكات المبادأة وحوافز التلقائية في السكان ،

وهنا ، مرة أخري ، نجد أن الحكومة المركزية الأولي في التاريخ ليست ميزة صافية بلا شوائب ولا كانت مكسباً بلا ثمن ، والذي يتعمق تاريخ مصر الاجتماعي ستروعه ولا شك تلك البيروقراطية العاتية التي تمتد علي طوله بغير انقطاع ، حتي لتشكل نغمة دالة عليه وملمحاً أساسياً آخر من ملامحه ، فالبيروقراطية في مصر قديمة قدم الحضارة الفرعونية ، مع الأهرام تبدأ ، وفيها تتلخص ،--- ويكفي بعدها أن نري صور كبار الموظفين علي النقوش والآثار القديمة وأن نعرف أخبارهم المتواترة في البرديات والسجلات العديدة حتي ندرك خطورة الدور الذي لعبته الهيئة البيروقراطية في القديم ، بل إن شئت رمزاً بليغاً ، ففي النحت تجده ابتداء من تمثال الكاتب حتي تمثال شيخ البلد فهذه جميعاً نصب تذكارية وتاريخ محفوظ أو محفور للبيروقراطية الفرعونية الثقيلة)37

(ومن هنا يمكن القول أن الشعب المصري يحتاج أو احتاج حاكماً قوياً علي طول تاريخه ، وحاجة الشعب إلي هذا الحاكم القوي تفوق كثيراً حاجة هذا الحاكم للشعب ، وهناك تناسب طردي بين قوة الحاكم وإحساس الشعب بالأمن ، فكلما كان الحاكم قوياً كلما شعر الشعب بالأمن ، فهو دائماً يحتاج إلي المبادرة من أعلي ، ودائماً ينتظر ما سيحدث لا ما سيصنعه هو ، فهو لا يصنع شيئاً من تلقاء نفسه بل عليه أن يتلقي التوجيهات من أعلي ، من حاكم ترنو إليه الأبصار وتتعلق به الآمال ، وإذا تأملنا الآثار الفرعونية في طول البلاد وعرضها سنجد أن أروعها وأكثرها تم بناءها في فترات السيطرة الكاملة للحكومة المركزية في ثلاث دول القديمة والوسطي والحديثة ولن نجد آثاراً بهذه الروعة في فترات الاضمحلال خلال العصر الفرعوني ، فلم تحدث إنجازات معمارية يمكن مقارنتها بما حدث في هذه الدول الثلاث)[38]

---

[36] نقلاً باختصار عن كتاب مختارات من شخصية مصر 3 للدكتور جمال حمدان – مكتبة مدبولي– مقتطفات مختصرة من صفحة 20 وما بعدها

[37] القاهرة – د جمال حمدان – صفحة 85

[38] نقلاً عن كتاب فتح الشبابيك علي أحوال المماليك – محمد عرموش

الإنجازات الكبيرة مرتبطة بالحكام وكذلك الإخفاقات أيضاً :

بل إذا تركنا العصر الفرعوني واستعرضنا عصر البطالمة ثم العصر الروماني في مصر سنجد الإنجازات تتحقق في فترات حكم الأقوياء فقط ، وحتي بعد فتح مصر وانضمامها إلي العالم الإسلامي سنجد أن رغبة الحاكم في حدوث أي أعمال ضخمة تكون هي المحركة للأحداث ، لأن المبادرة تأتي من أعلي غالباً ، فتأمل وراجع معظم الإنشاءات والمشروعات الكبري في تاريخ مصر منذ عصر الفراعنة كالأهرامات والمعابد قديماً والأعمال المعمارية الضخمة في العصر المملوكي وعصر أسرة محمد علي وحفر قناة السويس وبناء السد العالي وكذلك الانتصارات الكبري في تاريخ مصر ، وحتي الهزائم والانكسارات والإخفاقات ستجد أن المحرك للأحداث غالباً لا يكون الشعب ، بالرغم من أن الشعب هو الذي يصنع كل هذا ولكن ليس من تلقاء نفسه في معظم الأحوال ،

وعن انعدام دور الشعب في اتخاذ القرار في مصر قديماً واستمراره أيضاً علي طول التاريخ كتب الدكتور جمال حمدان في إطار حديثه عن الاستمرارية والانقطاع في مصر

بعض ما كتبه د جمال حمدان عن الاستمرا رية والانقطاع في مصر :

حيث كتب في الجزء الرابع من كتابه شخصية مصر – دراسة في عبقرية المكان – الصادر عن دار الهلال في الباب العاشر تحت عنوان (آفاق الزمان وأبعاد المكان) وبالفصل الثاني والأربعين ، تحت عنوان الاستمرارية والانقطاع ، من صفحة 604 وما بعدها : (– – – فعلي طرفي النقيض الأقصي والمطلق من مصر الاقتصادية ، وعلي خلاف مصر الاجتماعية ، إلي حد بعيد ، لم تكد مصر السياسية تتغير أو تعرف التغير ، فهي إن لم تكن بعيدة تماماً عن التغير فإنها بلا نزاع آخر وأقل ما يتغير في مصر ، إنها قمة الاستمرارية والثوابت وقاع الانقطاع والمتغيرات في مصر ، لكنها للأسف والأسي بالطبع أسوأ استمرارية وشر الثوابت علي وجه اليقين والإطلاق ، ذلك أنها النقطة السوداء والشوهاء في الاستمرارية المصرية جميعاً ، مثلما هي الوحيدة التي لم تعرف الانقطاع أو التغير قبل العصر الحديث وبعده ، إنها الاستمرارية السلبية بامتياز ، مثلما هي قمة سلبيات الاستمرارية بيقين ، والسؤال ببساطة هل تغيرت مصر المعاصرة عن مصر الحديثة ، والحديثة عن القديمة ، في قضية التركيب الاجتماعي – السياسي ونظام الحكم والسلطة ، وإلي أي حد ؟ ، التغير الجوهري في الشكل ، أما الجوهر فلم يكد يتغير ، وهذا الجوهر هو الطغيان الشرقي ، الطغيان الفرعوني ، بكل أعمدته التقليدية ، فهو الخط المستمر والقاسم المشترك الأعظم ، الذي يجري خلال تاريخ مصر كله منذ مينا – – المتغير الوحيد هو الشكل ، – – فقديما كان الفلاحون عبيد فرعون ثم عبيد السلطان ، وحديثاً فإذا لم نكن قد صرنا حقاً أو نوعاً عبيد – فنحن يقيناً مازلنا بين فراعنة وفلاحين ، ورعايا لا مواطنين ، – – – وبمزيد من التوضيح ، فنحن في مصر الحديثة قد بدأنا حياتنا النيابية العصرية بالأخذ بالنموذج الغربي الديموقراطي البورجوازي الليبرالي المتعدد الأحزاب ، بل وذلك منذ وقت مبكر نسبياً تحت – الخديو اسماعيل – وقبل كثير من الدول الأخري ، غير أن ذلك لم يكن للأسف إلا كقشرة وطلاء وواجهة ديموقراطية شكلية بحتة لخلفية اجتماعية محض إقطاعية طبقية رجعية ، ولأرضية استبدادية غاشمة من الحكم المطلق والطغيان المعهود ، فالحرية كلمة مستوردة لم تدخل قاموس السياسة المصرية إلا منذ الطهطاوي والمثل الفرنسي ، ولكن كأسم لا كفعل ، فالقاعدة الأصولية في مصر ، والتي لا تزال مرعية بأمانة – – هي أن كل من يختلف مع الحاكم فهو خائن بطريقة أو بأخري ، أو علي الأقل فإنه هو الحقد الذي لم يجد له قط علاجاً ، ذلك أن الرأي – كالقوة وكالفعل – ملك للحاكم

فقط وحكر عليه وحده ، أما المعارضة فلم تعرفها مصر منذ الفرعونية – – إلا رمزاً وإلا شكلاً والرأي الآخر لم يوجد إلا في نفس صاحبه فقط – – من هنا جميعاً فإن هذه الديموقراطية البرلمانية المستوردة ليست إلا غلافاً جذاباً وقناعاً براقاً للديكتاتورية الأصيلة والأصلية ، لذا يمكننا – والديموقراطية أكثر شئ نسبية إن لم تكن أكثر شئ مطاطاً – أن نسميها بحق الديموقراطية الشرقية كمرادف محلي أو عصري للطغيان الشرقي ويمكنك أيضاً أن تسميها ديموقراطية العالم الثالث – – – وما هي إلا الغراب يقلد مشية الطاووس – – وكما في دول الشرق الأوسط والعالم المتخلف ليس ثمة شئ في سياسة مصر الخارجية اسمه الشعب من الوجهة العملية ، ولا أوهام في هذا أو انفعال ، فصناعة السياسة الخارجية وتشكيلها وتوجيهها هي عملياً وواقعياً بغض النظر عن الشكليات السطحية المموهة حكر لرجل واحد هو الحاكم – – – وأنه حاكم مطلق خارجياً كما هو داخلياً ، ولا يكاد يوجد حاكم في العالم القديم أو الحديث ينفرد بوضع سياسة بلده الخارجية كحاكم مصر ، وقد عبر بعض المعلقين الأمريكيين مؤخراً علي هذه الظاهرة بقولهم إن السياسة الخارجية في هذا الجزء من العالم سياسة شخصية أساساً ، الدور الشخصي للحاكم هو الدور المحوري إن لم يكن الأوحد فيها ، وفي هذا بالدقة تكمن جذور المأساة العظمي ، فمكان مصر ومكانتها الدولية كقوة سياسية ، انتصارها وهزيمتها مصيرها وبقاؤها – – إلخ كل أولئك بين يدي شخص واحد – – – – لقد تغيرت مصر الحديثة والمعاصرة في جميع نواحي الحضارة المادية واللامادية والحياة الاقتصادية والاجتماعية بدرجات متفاوتات ، وذلك علي الأقل بحكم العصر والحضارة الحديثة المعدية ، تماماً مثلما تغير كل العالم الثالث ولربما تفوقت مصر في مدي هذا التغيير ، غير أنها من أسف لم تكد تتغير من ناحية نظام الحكم ، ففي هذا لا جديد تحت الشمس –)[39]

<u>عندما يفهم الحاكم طبيعة الشعب :</u>

مما سبق يتضح أنه ربما يكون القاسم المشترك بين جميع القادة البارزين في تاريخ مصر هو فهمهم لطبيعة شخصية مصر وخصائص الشخصية المصرية وبالتالي استغلوا إمكانيات مصر الاستغلال الأمثل ودفعوا الشعب المصري لتحقيق العديد من الإنجازات وإن كان السبب والدافع فيما حققوه يختلف من حاكم إلي آخر فقد يكون السبب تحقيق مجد شخصي وطموحات شخصية وقد يكون السبب تحقيق مصلحة شعب مصر والأمة ابتغاء لمرضاة الله سبحانه وتعالي وقد يكون رفع مستوي إنتاجها لتخدم مصالح دولة كبري هي جزء منها كما كانت مثلاً مصر في فترة من الفترات هي مصدر القمح للإمبراطورية الرومانية ، كما أنها كانت كولاية إسلامية من أهم وأغني الولايات التي تهتم بها الخلافة الإسلامية ، وكلنا يذكر ما كتبه المؤرخون عن المجاعة التي حدثت في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكيف قامت مصر بإنقاذ الموقف ،

قال ابن عبد الحكم : حدثنا عبد الله بن صالح وغيره ، عن الليث بن سعد ، أن الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد في خلافة عمر عام الرمادة ، فكتب إلي عمرو بن العاص وهو بمصر : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلي عمرو بن العاص : سلام عليك ، أما بعد : فلعمري يا عمرو ما تبالي إذا شبعت أنت ومن معك ، أن أهلك أنا ومن معي ، فيا غوثاه ، ثم يا غوثاه ، يردد قوله ، فكتب إليه عمرو بن العاص : لعبد الله عمر أمير

---

[39] نقلاً عن كتاب شخصية مصر – د جمال حمدان

المؤمنين ، من عمرو بن العاص ، أما بعد فيالبيك ، ثم يالبيك ، قد بعثت إليك بعير أولها عندك وآخرها عندي ، والسلام عليك ورحمة الله ، فبعث إليه بعير عظيمة ، فكان أولها بالمدينة و آخرها بمصر ، يتبع بعضها بعضاً ، فلما قدمت علي عمر وسع بها علي الناس[40]

<u>ماذا يحدث إذا فهم الحاكم طبيعة مصر وشعبها ولم يفهم الموقف الدولي ؟ :</u>

لكي يكون حاكم مصر حاكماً متميزاً ومن القادة البارزين في تاريخ مصر و سيتضمن هذا الكتاب معلومات عنه وعن عصره لابد أن يكون ملماً بالموقف الدولي وليس بطبيعة الشعب المصري وحسب ، وخير ما قرأته عن تأثير جهل الحكام بالموقف الدولي علي مصر وشعبها ما كتبه الكاتب الكبير يحيي حقي في كتابه الممتع صفحات من تاريخ مصر ، حيث كتب تحت عنوان (وجهة نظر قابلة للتصحيح) ما ملخصه :

السؤال الذي يتردد في خاطري وأنا أقرأ تاريخ مصر الحديث هو عن مدي إلمام قادتها بالموقف الدولي ، فإن الجهل به كان – فيما أعتقد – سبب وقوعهم في أخطاء كثيرة وإصابتهم بخيبة أمل من جنس واحد ، مرة بعد مرة دون أن يتعظوا ، لم يتمثل الجهل المطبق بالموقف الدولي كما تمثل في إبراهيم بك ومراد بك حينما ظهر أسطول نلسون أمام الشواطئ المصرية وأرسل إليهما يقول إنه يطارد أسطول نابليون الذي أبحر لغزو مصر ، لم يسأل أحد من هو نابليون ؟ ولماذا يريد غزو مصر ؟ ولماذا تطارده حضرتك ؟

قالا له إن مصر كنانة الله في أرضه وهي منيعة لأنها من بلاد الدولة العلية ، حسباها زعقة أو كرشة بين اثنين من العصبجية لا شأن لمصر بهما ، ومع أن مصلحة المماليك توحدت ومصلحة إنجلترا في صد عدوان فرنسا علي مصر ، فإن مراد بك وزميله لم يحاولا أن يلعبا ورقة نلسون ضد نابليون ، كانا يجهلان كل الجهل الصراع القائم بين إنجلترا وفرنسا ، وعاد نلسون من حيث أتي دون أن يظفر بإنسان يفهم عنه ، ليس في الجبرتي أي دليل علي أن مصر أدركت أن سبب غزو نابليون لأرضها هو –قبل كل شئ– لكسر شكيمة إنجلترا في أوروبا والمحيطات كذلك لم ينطق نابليون للمصريين بكلمة واحدة تعينهم علي فهم الموقف الدولي ودور مصر فيه ، لعله وجدهم دون مستوي الفهم ، هناك كتب في التاريخ عنوانها (لو أن .....) ، فمن الجائز أن يكون من بين فصولها محاولة الإجابة علي السؤال الآتي : (ماذا كان سيحدث لو أن مراد بك وزميله سمحا لنلسون بانتظار نابليون أمام شواطئ مصر بحيث يتم تحطيم أسطول نابليون في موقعة أبو قير قبل الغزو لا بعده؟) ، لك أن تتخيل ما تشاء فإني لا أحب هذه التخمينات لأنها سفسطة فارغة – – – – – – – من الخطأ إطلاق وصف (القادة) علي إبراهيم بك ومراد بك ، لم يكن كل منهما في حقيقة الأمر إلا شيخ منصر همه السلب والنهب وامتلاء جوفه وخزائنه ، فليس بعجيب عليهما هذا الجهل المطبق بالموقف الدولي ودور مصر فيه

ننتقل الآن إلي محمد علي ، لا يمكن لعصامي مثله الجمع بين طغيان الشخصية وشدة الدهاء إلا أن يكون – رغم أميته– (رجل دولة) بالمعني الحديث لهذا التعبير ، أراد من أول يوم أن يستأثر هو وأبناؤه بحكم مصر لأنه أحبها كما يحب الأكول البطني أكلة شهية ، هي جنته في الأرض ينعم بها قبل أن يأذن له سيدنا رضوان بدخول جنة السماء ، علمي علمك ، فكان لابد له أن يفهم سياسة الباب العالي في استنبول وهي في ذاتها عقدة العقد

---

[40] نقلاً عن كتاب حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي

، وأن يظل متسمعا لكل همس يدور في سراي (خولمة باغجة) أو (يلديز) وعن طريق سياسة الباب العالي نفذ محمد علي إلي فهم الموقف الدولي في أوروبا ، من الممكن الدفاع عن الرأي القائل أن محمد علي لم يفهم هذا الموقف الدولي حق الفهم وأنه ظل حبيس أفقه المحلي الدائر حول محور (رأس التين–خولمة باغجة) لعل السبب أن أطماعه كانت أقوي من ذكائه ، والطمع يعمي ويصم

فقد أخطأ في تقدير أن أوروبا ستقف مكتوفة الأيدي تشهده ينشئ أمبراطورية عربية تغير علي الدولة العثمانية فإما أن تحتلها وإما أن تقص جناحها علي الأقل وتنتزع منها الخلافة – – – – وأخطأ في تقدير مدي مساعدة فرنسا له حسبها أنها –وهي مرضعته– ستقف إلي جانبه علي طول الخط ، لم يفهم أن تركة الرجل المريض (الدولة العثمانية) معدة للتوزيع علي دول أوروبا لا علي بلاد أسيا وأفريقيا ، كلها في نظر أوروبا بلاد نيام نيام ، وأن أوروبا وإن اختلفت فهي متفقة علي منع قيام دولة عظيمة في هذا الموقع الذي تحتله مصر – – –

فلما توغل إبراهيم باشا في الأناضول وأصبح قاب قوسين أو أدني من استانبول اشتركت أوروبا –في مقدمتها فرنسا– في توجيه إنذارها لمحمد علي بالرجوع إلي جحره والانكماش فيه ، وكان تحطيم أسطول مصر غدراً في موقعة نافارين مثلاً آخر علي اتحاد أوروبا وفي مقدمتها فرنسا علي كبح جماح مصر

من السهل ربط خيبة أمل محمد علي ببوادر إصابته بالجنون ، لا شك أن الإنذار الأوروبي كان صدمة شديدة له ، والجاهل لا العالم هو الذي يصاب بمثل هذه الصدمة حين يستيقظ علي الحقيقة المرة التي كانت خافيه عليه

ومن الجائز الدفاع عن الرأي المضاد القائل أن محمد علي لم يكن غرا حتي يتصور أنه يستطيع إقامة إمبراطورية بمشهد – – من أوروبا التفسير المعقول لسياسته هو أنه أراد أن تكثر في يده أوراق اللعب ولو ضحي في سبيل ذلك بالجيوش والأساطيل كل هذه الأوراق لا تلزمه ولا يطمع في الربح منها إلا ورقة واحدة ، وإنما لابد له أن يحتال لامتلاكها ليساوم بها فيتنازل عنها جميعاً من أجل استبقاء هذه الورقة الواحدة في يده ، إنها ورقة استيلائه علي عرش مصر حقا له ولذريته من بعده ، – – إذا كان محمد علي قد انسحب من الحجاز واليمن وسوريا والأناضول وإذا كان اسطوله قد تحطم فإن هذا كله كان الثمن الذي لابد من دفعه لحصوله علي عرش مصر كان محمد علي يعلم هذا الثمن وكان مستعداً لدفعه ومما يؤيد هذا الرأي أن مودته ومودة خلفائه من بعده لفرنسا لم تتغير رغم كل الذي فعلته ،

وإذا جئنا لعرابي وجدناه هو أيضاً لسوء الحظ غير ملم بالموقف الدولي الإلمام الواجب لرجل مثله يقود أمته وسط الأعاصير ليس هناك دليل قاطع علي أنه فهم سياسة إنجلترا نحو قناة السويس وكيف تحولت من معارضتها إلي الطمع فيها ثم إلي اتخاذ العدة للاستيلاء عليها ، لم يمد بصره إلي أوروبا ليعرف كيف تقف من إنجلترا إذا أزمعت غزو مصر منفردة ، لم يحاول البحث عن نصير حتي لو حكم من أول الأمر أن لا نصير له – –كان ينبغي ان يكون ملما كل الإلمام بالموقف الداخلي في فرنسا ليزن بميزان صحيح قيمة وعد دي ليسبس له بأن انجلترا لن تخرق حياد القناة من أجل ذلك وقع في خطأ عسكري جسيم هو عدوله عن ردمها ،

لم تجد إنجلترا في عرابي خصماً ذا دهاء يجيد المناورة ، بل رجلاً طيباً يؤمن بأن الاعتداء جريمة وبأن الشجاعة تغلب المدفع ، فلما وقعت النكبة فسرها بأنها من تصاريف القدر – – ولم يتزلزل اعتقاده في أنه قام بواجبه في الدفاع عن كرامة شعبه وحقوق بلاده ، وإذا كانت حكمته موضع درس فإن إخلاصه فوق الشبهات ،

وفي السنوات الأولي للاحتلال البريطاني نسيت مصر الدرس الذي تلقاه محمد علي ثم عرابي علي يد فرنسا وتعلقت آمال بعض قادتها من جديد بهذه الصديقة التي تعد ثم تخلف بل قد تنحاز للعدو ، حسب هؤلاء القادة أن الوعود المعسولة في الخطب الرنانة والاجتماعات الخاصة لها قيمة المعاهدات الرسمية ، – – –

أما الوفد المصري فقد أدرك من الموقف الدولي القدر الضئيل الذي يلزمه فلم يتلكأ في تحويل قضية مصر عن النطاق الدولي المأمول إلي علاقة ثنائية بينها وبين إنجلترا فشد الرحال إلي لندن للمفاوضة ، بعد أن وجد جميع أبواب مؤتمر الصلح مغلقة في وجهه ، بعض رسائله أعيدت إليه دون أن تُفتح

وقد أصيبت مصر بخيبة أمل قاسية جاءت هذه المرة من أمريكا لا من فرنسا ، هتفنا في المظاهرات إلي أن بحت الأصوات بحياة ويلسون وميثاقه المؤلف من 14 نقطة ، من بينها نقطة تعترف بحق كل شعب في تقرير مصيره ، فإذا بنا نعلم ذات يوم أن أمريكا اعترفت بالحماية البريطانية ، إنني لا أنسي إلي اليوم سخونة وجهنا في ذلك اليوم من أثر تلك الصفعة ، وقد كنا نكون في منجي من الإحساس بهذه الصفعة المؤلمة لو أن أحد بصرنا بحقيقة هامة كثيراً ما غابت عن قادة أفريقيا وآسيا وهي أن القانون الدولي موضوع لمصلحة دول حضارة أوروبا الغربية وحدها – – – إن ويلسون حين نادي بحق كل شعب في تقرير مصيره كان لا يقصد شعوب آسيا وأفريقيا بل شعوب أوروبا – – إنه لم يخن مصر ، بل مصر هي التي أساءت فهمه[41]

[41] من كتاب (صفحات من تاريخ مصر) للكاتب الكبير يحيي حقي